﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾ [النّساء: 127]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قال الإمام الرَّازيُّ في بيان صلة هذه الآية بما قبلها:

"اعلم أنَّ عادة الله تعالى في ترتيب هذا الكتاب الكريم وقع على أحسن الوجوه، وهو أن يذكر شيئًا من الأحكام، ثُمَّ يذكر عَقِيبَه آيات كثيرة في الوعد والوعيد والتَّرغيب والتَّرهيب، ويخلط بها آيات دالَّةً على كبرياء الله وجلال قدرته، ثم يعود مرَّة أخرى إلى بيان الأحكام، وهذا أحسن أنواع التَّرتيب وأقربها إلى التَّأثير في القلوب؛ لأنَّ التَّكاليف بالأعمال الشَّاقَّة لا يقع في موقع القبول، إلَّا إذا كان مقرونًا بالوعد والوعيد، والوعد والوعيد لا يؤثِّر في القلب، إلَّا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد، فظهر أنَّ هذا التَّرتيب أحسن التَّرتيبات اللَّائقة بالدَّعوة إلى الحقِّ.

إذا عرفت هذا؛ فنقول: إنَّه سبحانه ذكر في أوَّل هذه السُّورة أنواعًا كثيرة من الشَّرائع والتَّكاليف، ثم أتبعها بشرح أحوال الكافرين والمنافقين، واستقصى في ذلك، ثُمَّ ختم تلك الآيات الدَّالَّة على عظمة جلال الله وكمال كبريائه، ثم عاد بعد ذلك إلى بيان الأحكام، فقال: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾ إلى آخر الآية[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ﴾: جذر الكلمة هو (فتي)، والفُتيا والفتوى: الجواب عمّا يشكل من الأحكام، ويقال: استفتيته فأفتاني بكذا، قال: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ [الصّافات: 11]،

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/233.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾ [الصّافات: 149]، وقوله: ﴿أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ [النّمل: 32][1]، وأفتاه في الأمر: أبانه له، والفتيا والفتوى: ما أفتى به الفقيه[2]، وأصل فَتْوَى: فتيا، الْيَاء مَقْلُوبَة عَن الْوَاو للخفَّة، وأفتى يُفْتِي إِفْتَاء واستفتى يستفتي استفتاء، والإفتاء: تَبْيِين الْمُبْهم، والاستفتاء: السُّؤَال من الإفتاء[3].

2) ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾: جذر الكلمة هو: (رغب)، تقول: إنَّه لوَهُوبٌ لكلِّ رَغيبةٍ، أي: مَرْغُوب فيها، وجمعها: رَغائِبُ، ورَغِبَ رَغْبةً ورَغْبَى على قياس شكوى، ورجل رغيبٌ: واسع الجوفِ أكولٌ، وقد رَغُبَ رَغابةً ورُغْبًا[4]، وأصل الرّغبة: السّعة في الشَّيء، يُقال: رَغُب الشَّيءُ: اتَّسع، وحوض رغيب، والرَّغبة والرَّغبُ والرَّغبى: السّعة في الإرادة، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: 90]، فإذا قيل: رغب فيه وإليه؛ يقتضي الحرص عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التّوبة: 59]، وإذا قيل: رَغِبَ عنه؛ اقتضى صرف الرَّغبة عنه والزُّهد فيه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: 130].

3) ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: جذر الكلمة هو (ضعف)، ضَعُفَ يضعُفُ ضَعْفًا وضُعْفًا: خلاف القوّة، قال تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: 73]، ويقال: الضَّعْفُ في العقل والرَّأي، والضُّعْفُ في الجسد، ويقال: هما لغتان جائزتان في كلِّ وجهٍ، تقول: رأيت به ضَعْفًا، وفَعَلَ ذاك من ضُعْفٍ شديد[5]، ورجل مضعوف: ضعيف الرَّأي، وقد ضعف ضعفًا[6]، والضّعف قد يكون في النَّفس وفي البدن وفي الحال[7]، قال تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: 66]، وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [القصص: 5].

4) ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: جذر الكلمة هو: (قسط)، والإقساطُ: العدل في القِسمة والحُكم، وتقول: أَقسَطْتُ بينهم، وأَقسَطْتُ إليهم، والقِسْطُ: الحصّة الَّتي تنوبه، وتقسَّطوا بينهم الشّيء، أي: اقتسموه بالتَّسوية، فكلُّ مقدارٍ قَسْطٌ في كلِّ شيء، والقِسطاسُ والقُسطاسُ:

(1) الراغب، المفردات: (فتي).
(2) ابن سيده، المُحكم: (فتي).
(3) الأحمد نكري، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: 3/12.
(4) الخليل، العين: (رغب).
(5) الخليل، العين: (ضعف).
(6) الزَّمخشري، أساس البلاغة: (ضعف).
(7) الراغب، المفردات: (ضعف).

أقوم الموازين[1]، قَالَ اللّه تعَالَى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾، وَهُوَ من المَصَادِرِ المَوْصُوفِ بهَا كالعَدْلِ، يُقال: مِيزانٌ قِسْطٌ ومِيزانانِ قِسْطٌ، ومَوازِينُ قِسْطٌ، يَسْتَوِي فيهِ الواحدُ والجَمِيعُ، وقولُهُ تَعَالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ﴾، أَي: ذواتِ القِسْطِ، أَي: العَدْل، وَفِي أَسْمَائِه تَعَالَى الحُسْنَى: المُقْسِطُ: هُوَ العادِلُ، ويُقَال: الإِقْسَاطُ: العَدْلُ في القِسْمَة فَقَط، أَقْسَطْتُ بَينهم، وأَقْسَطْتُ إِليهم، فَفِي الحَدِيث: "إِذا حَكَمُوا؛ عَدَلُوا، وإِذا قَسَمُوا؛ أَقْسَطُوا" أَي: عَدَلُوا في القسمة[2].

❁ المعنى العامُّ للآية:

يُطلب النَّاس منك - أيُّها النَّبيُّ - أن تبيّن لهم ما أشكل عليهم فَهْمُه من قضايا النِّساء وأحكامهن، قل: اللّه تعالى يبيِّن لكم أمورهنَّ، وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النِّساء اللَّاتي لا تعطونهنَّ ما فرض اللّه تعالى لهنَّ من المهر والميراث وغير ذلك من الحقوق، وتحبُّون نكاحهنَّ، أو ترغبون عن نكاحهنَّ، ويبيِّن اللّه لكم أمر الضُّعفاء من الصِّغار، ووجوب القيام لليتامى - وهم الَّذين مات آباؤهم، وهم دون سنِّ البلوغ - بالعدل، وترْكِ الجور عليهم في حقوقهم، ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾، لا يخفى عليه شيء منه ولا من غيره[3].

وفي البخاريِّ عن عائشة ﵂ عن سبب نزول قوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية: "قالت: هو الرَّجل تكون عنده اليتيمة، هو وليُّها ووارثها، فأشركته في ماله، حتَّى في العذق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوِّجها رجلًا، فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عموم التَّناسب بين الأحكام والوعد والوعيد والتَّرغيب والتَّرهيب:

هذه الآية الكريمة أنموذج لما كان ﷺ قد رتَّب هذا الكتاب عليه من ذكر أحكام

(1) الخليل، العين: (قسط).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (قسط).
(3) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسّر: 98.
(4) البخاريّ، الحديث رقم: 4600.

من الأصول والفروع، ثُمَّ يفصِّلها بوعد ووعيد وترغيب وترهيب، وينظِّمها بدلائل كبريائه وجلاله وعظيم برِّه وكماله، ثُمَّ يعود إلى بيان الأحكام على أبدع نظام؛ لأنَّ إلقاء المراد في ذلك القالب أقرب إلى القبول، والنَّظم كذلك، فالتَّكليف بالأعمال الشَّاقّة لا تنقاد له النُّفوس إلَّا إذا كان مقرونًا ببشارة ونذارة، وذلك لا يؤثِّر إلَّا عند القطع بغاية الكمال لمن صدر عنه ذلك المقال، ولا ينتقل مع ذلك من أسلوب إلى آخر إلَّا على غاية ما يكون من المناسبة بين آخر كلِّ نوع وأوَّل ما بعده بكمال التَّعلُّق لفظًا ومعنًى، وفعل ﷻ في هذه السُّورة في أحكام العدل الَّذي بدأ السُّورة به في المواصلة الَّتي مبناها النِّكاح والإرث وغير ذلك ممَّا اتَّصل به - كما بيّن - إلى أن ختم هنا بالإسلام المثمر لقبول ذلك[1].

أجدر بالتَّأثير في القلوب وأقرب إلى القبول

نكتة ردِّ العجُز على الصَّدر:

هذه الآية إشارة إلى ما مضى في صدر هذه السُّورة، وهو قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾ [النِّساء: 4]، وقوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النِّساء: 2]، وقوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء: 3]، قالت عائشة ﵂: نزلت هذه الآية - تعني: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾- أوَّلًا، ثُمَّ سأل ناس بعدها رسول الله ﷺ عن أمر النِّساء، فنزلت: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾[2]، وهي من قبيل ردِّ العجز على الصَّدر؛ لما تضمَّنته من علاقة في المعنى وسبب النُّزول.

الاستعانة بالماضي في استشراف المستقبل

الإجمال في قوله: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾:

ومن الآيات المناظِرة قوله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾، والاستفتاء ليس في ذوات النِّساء، وإنَّما هو عن شيء

الشُّمول في السُّؤال والفُتيا مؤشِّر قدرة التَّشريع على توحيد المجتمع

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/415.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/83.

من أحكامهنَّ، ولم يبيِّن، فهو مجمل، ومعنى يفتيكم فيهن: يبيِّن لكم حال ما سألتم عنه وحكمه[1]، وفائدة هذا الإجمال: شمول النِّساء جميعًا وأحكامهنَّ.

تقديم المسند إليه في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾:

تخصيصٌ له، وتكريمٌ للنِّساء

يأتي جواب هذا الاستفتاء في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾، فجاء الأمر إلى رسول الله ﷺ بـ ﴿قُلِ﴾: إنَّ الله تعالى سيفتيكم فيهنَّ، فقدّم فيها المسند إليه لفظ الجلالة (الله)؛ تمييزًا وتخصيصًا له، وما ذاك إلَّا تكريمٌ للنِّساء ولشأنهنَّ، وتنبيهٌ للرِّجال إلى إعادة النَّظر فيما يفعلونه من غمط حقوقهنَّ والتَّجاوز عليهنَّ، فيظهر عِظَم هذا الأمر، فتقديم اسم الجلالة للتَّنويه بشأن هذه الفتيا[2]، ولمَّا كان المقام بكثرة الاستفتاء محتاجًا إلى زيادة الاعتناء؛ قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ آمرًا معبِّرًا بالاسم الأعظم منبِّهًا على استحضار ما ذكر أوَّل السُّورة ﴿يُفۡتِيكُمۡ﴾، أي: يبيِّن لكم حكمه ﴿فِيهِنَّ﴾، أي: الآن لأن تقوموا لهنَّ بالقِسط[3].

وفي تقديم اسم الجلالة على الفعل المضارع عدول من الجملة الفعليَّة (يفتيكم الله) إلى الجملة الاسميَّة ﴿ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ الثُّبوت والدَّوام هو الأنسب للمقام؛ لأنَّ الله هو الخالق، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14]، فهو يعلم ما يَصْلُح لخلقه، وما يُصْلِح خلْقَه.

شـرعـة الـلـه شاملة متجدّدة العطاء صالحة لكلّ عَصْرٍ ومِصْر

دلالة المضارع في قوله: ﴿ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾:

مع إفادة تقديم اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ من تقوية حكم الإسناد، فقد حمل الفعل المضارع معنى: الوعد المستمرِّ، ليرجع بالمؤمنين إلى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/81.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/213.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/417.

كتاب الله تعالى، في أحكام النِّساء الَّتي يسألون عنها، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾؛ ليمتزج هذا الإكرام بجميع ما يُتلى على المؤمنين من آيات الله البيِّنات، فيستحضر عظيم شأن تلك الفُتيا، ودلالتها على الشُّمول لشؤون النِّساء كلِّها.

دلالات إعراب﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

وردت في إعراب ﴿وَمَا﴾ في الآية عدَّة وجوه:[1]

1- في محلِّ جرٍّ، معطوفة على الهاء في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾، وأجاز الزمخشريُّ أن يكون مجرورًا على القسم، كأنَّه قيل: قل اللَّه يفتيكم فيهنَّ، وأقسم بما يُتلى عليكم في الكتاب، والقسم أيضًا لمعنى التَّعظيم، وليس بسديد أن يعطف على المجرور في: ﴿فِيهِنَّ﴾؛ لاختلاله من حيث اللَّفظ والمعنى.

وعلى هذا الوجه تظهر بلاغة إعرابها في دلالة القسم على التَّأكيد، وتعظيم ما يتلى عليهم.

2- مفعول به لفعل محذوف تقديره: ونبيِّن لكم ما يُتلى عليكم.

وفي إعرابه مفعولًا لفعل محذوف إشارة إلى وضوح الفتوى، وتجلية وجه إشكالها.

3- في موضع الرَّفع، وهو أقوى الوجوه، وفيه ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: معطوفة على ضمير الفاعل في يفتيكم، أي: وكذلك يفتيكم الَّذي يُتلى عليكم، ويفتي بمعنى: يبيِّن، وإسناد الفُتيا لما يتلى على سبيل المجاز.

والثاني: معطوف على لفظ الجلالة في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، وهو بمعنى الوجه الأول.

والثالث: مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: وما يُتلى عليكم في الكتاب يبيِّن لكم.

وحُذف لدلالة ما قبله عليه، وعلى هذا التَّقدير يتعلَّق في الكتاب بقوله: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، أو تكون في موضع الحال من الضَّمير في ﴿يُتۡلَىٰ﴾[2].

وعلى كلٍّ فإنَّ هذا التنوُّع في أوجه إعراب (ما) يُضفي ضوءًا على أثر الإعراب في فهم معاني القرآن الكريم، وعِظم إعجازه، وبلاغة إيجازه.

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/569، وصافي، الجدول: 5/189.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/569.

دلالة الفعل المضارع في قوله: ﴿يُتْلَىٰ﴾:

تجدُّد تلاوته، وتفعيل معانيه إلى قيام السّاعة

﴿وَمَا﴾، أي: مع ما ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: تتجدَّد فيكم تلاوته إلى آخر الدَّهر سيفًا قاطعًا وحكمًا ماضيًا جامعًا ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: فيما سبق أوَّل السُّورة في قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وغير ذلك ﴿فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: في شأن اليتامى من هذا الصِّنف ﴿ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ﴾، أي: بسبب التوقُّف في ذلك، وتكرير الاستفتاء عنه، وقد تكرَّرت صيغ المضارع في الآية، فقال: ﴿يُتْلَىٰ﴾، و﴿تُؤْتُونَهُنَّ﴾، ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾، و﴿تَقُومُوا۟﴾، و﴿تَفْعَلُوا۟﴾.

الإسناد المجازيُّ في إسناد الإفتاء إلى التِّلاوة:

ما يُتلى من الكتاب بمنزلة إفتاء الله تعالى

وقوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ عطف على اسم الجلالة، أي: ويفتيكم فيهنَّ ما يُتلى عليكم في الكتاب، أي: القرآن، وإسناد الإفتاء إلى ما يُتلى: إسناد مجازيٌّ؛ لأنَّ ما يُتلى دالٌّ على إفتاء الله، فهو سبب فيه، فآل المعنى إلى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، بما يُتلى عليكم في الكتاب، والمراد بذلك بما تُلي عليهم من أوَّل السُّورة، وما سيتلى بعد ذلك، فإنَّ التذكير به وتكريره إفتاء به مرَّة ثانية، وما أتبع به من الأحكام إفتاء أيضًا.

وضع المضارع موضع الماضي:

التَّراسل بين الماضي والحاضر يُسهم في تحقُّق المستقبل

قوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، فعلى ما قاله المفسِّرون وما نُقل عن عائشة؛ يكون ﴿يُفْتِيكُمْ﴾ و﴿يُتْلَىٰ﴾ فيه وضع المضارع موضع الماضي؛ لأنَّ الإفتاء والتِّلاوة قد سبقت، وفي ذكر المُضارع هنا فائدة تجديد الانتباه إلى ما يُتلى في الكتاب في يتامى النِّساء.

دلالة لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وأثره في المعنى:

حقوق اليتامى من عظائم الأمور

الكتاب بمعنى: القرآن[1]، وقيل: المراد بالكتاب اللَّوح المحفوظ؛ تعظيمًا للمتلوِّ عليهم، وأنَّ العدل والإنصاف في حقوق اليتامى من عظائم الأمور المرفوعة الدَّرجات عند الله، الَّتي يجب مراعاتها والمحافظة عليها، والمخلُّ ظالم متهاون بما عظَّمه الله.

إضافة الخاصِّ إلى العامِّ:

الإشـــارة إلى أهمِّيَّة قضايا النِّساء لاسيَّما اليتامى

والإضافة في ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ من باب إضافة الخاصِّ إلى العامِّ؛ لأنَّ النِّساء ينقسمن إلى: يتامى وغير يتامى[2]، وقال الزَّمخشريُّ: الإضافة في ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ هي بمعنى: إضافة الشَّيء إلى جنسه[3]، وفائدة ذلك: توجيه النَّظر إلى مسائل اليتامى من النِّساء، مع الإشارة إلى أهمِّيّة قضايا النِّساء جميعًا.

ويجوز الفصل وإتباع الجنس لما قبله، والَّذي يظهر في ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أنَّها إضافة على معنى اللَّام، ومعنى اللَّام: الاختصاص.

قراءة شاذة في قوله تعالى ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾:

قرأ أبو عبد الله المدنيُّ: في (بيامى النِّساء) بياءين[4]، وخرَّجه ابن جِنِّي على أنَّ الأصل: أيامى، فأبدل من الهمزة ياء، كقولهم: باهلة بن يعصر، وإنَّما هو ابن أعصر[5]، و(أيامى) جمع: أيِّم، على وزن (فَعِيل)، وهو مِمَّا اختصَّ به المعتلُّ، وأصله: أيايم كَسَيَايد جمع: سَيِّد، قُلبت اللَّام موضع العين، فجاء أيامى، فأبدل من الكسرة فتحة، انقلبت الياء ألفًا لتحرُّكها وانفتاح ما قبلها، وقال ابن جنِّي:

(1) السِّيوطيّ، معترك الأقران: 3/265.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/84.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/569.
(4) هي قراءة شاذة، قرأ بها الضَّبِّيُّ عن أبي عبد الله المدنّي، كما في ابن خالويه، المختصر، ص: 29، وابن جنِّي، المحتسب: 1/200.
(5) ابن جنِّي، المحتسب: 1/200.

ولو قال قائل: كسر أيِّم على أَيْمَى على وزن سَكْرَى، ثم كسر أَيْمَى على أَيَامَى؛ لكان وجهًا حسنًا[1].

ويظهر أثر هذه القراءة في معنى الآية الكريمة، حيث إنَّها من جذر آخر، وهو (أيِّم) ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ [النُّور: 32]، والأيِّم من النِّساء: الَّتي لا زوج لها بكرًا كانت أو ثيِّبًا، وهي أوسع دائرة من ﴿يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

بلاغة الكلام المُوجَّه:

وصف الواقع، وردع الظَّالم، وتعظيم حقّ النِّساء

في هذه الآية الكلام الموجَّه: وهو الَّذي يحتمل معنيين متضادَّين، وذلك في قوله: ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، فهنَّ إمَّا جميلات أو دميمات، حسب تقدير حرف الجرِّ المحذوف: (في) أو (عن)[2]، قال أبو عبيدة: ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، هذا اللَّفظ يحتمل الرَّغبة والنُّفرة: فالمعنى في الرَّغبة: في أن تنكحوهنَّ لمالهنّ أو لجمالهنَّ، والنُّفرة: ترغبون عن أن تنكحوهنّ لقبحهنَّ، فتمسكوهنَّ رغبةً في أموالهنَّ، والأوَّل قول عائشة - رضي الله عنها - وجماعة، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يأخذ النَّاس بالدَّرجة الفضلى في هذا المعنى، فكان إذا سأل الوليَّ عن وليَّته، فقيل: هي غنيَّة جميلة؛ قال له: اطلب لها من هو خيرٌ منك، وأعْودُ عليها بالنَّفع، وإذا قيل: هي دميمة فقيرة؛ قال له: أنت أولى بها، وبالسَّتر عليها من غيرك، و﴿ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ معطوف على ﴿يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، والَّذي تُلي فيهم قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَـٰدِكُمۡ﴾ [النِّساء: 11] الآية، وذلك أنَّ العرب كانت لا تورِّث الصَّبيَّة ولا الصَّبيَّ الصَّغير، وكان الكبير ينفرد بالمال، وكانوا يقولون: إنَّما يرث من يحمي الحوزة، ويردُّ الغنيمة، ويقاتل عن الحريم، ففرض الله تعالى لكلِّ واحد حقَّه[3].

(1) ابن جني، المحتسب: 1/200.
(2) صافي، الجدول: 5/181.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/85.

ويجوز أن يكون خطابًا للأوصياء، كقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ [النِّساء: 2] وقيل: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ هنا: العبيد والإماء[1].

بلاغة إيجاز الحذف في قوله: ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾:

جـبْرُ الخـاطـر، وتهذيب النَّافر

هذه العبارة تضمَّنت على إيجاز حذف، فتقدير المعنى: وترغبون عن أن تنكحوهن[2]، وهو حرف (عن) مركَّب من حرفين، فلا ثِقل فيه من جهة اللَّفظ، ولكنَّه أثقل من الجبال على قلب اليتيمة من النِّساء؛ إذا سمعته، فراعى القرآن الكريم ذلك، فعدل عنه إلى المصدر المؤوَّل من (أن والفعل) الَّذي يحتمل معنى (في)؛ ليفتح باب الأمل، والتَّفاؤل لهنَّ؛ ولو احتمالًا، وفي الوقت ذاته فيه تهذيب لهذا النَّافر من نكاح اليتيمة؛ حتَّى لا يظلمَها بأكل حقِّها الماديِّ، أو بكسر خاطرها تصريحًا أو تلميحًا، مستندين على ما جاء في حديث السَّيِّدة عائشة ﵂، قالت: "هو الرَّجل تكون عنده اليتيمة، هو وليُّها ووارثها، فأشركته في ماله حتَّى في العذق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوِّجها رجلًا، فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية"[3]، وفي هذا الحذف عدم ذكر الرَّغبة عنهُنَّ رأفة بهنَّ.

ولحذف حرف الجرِّ بعد ﴿وَتَرۡغَبُونَ﴾ هنا موقع عظيم من الإيجاز وإكثار المعنى، أي: ترغبون عن نكاح بعضهن، وفي نكاح البعض الآخر.

الاستعارة في قوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ﴾:

أهـمِّيَّة شـؤون هـؤلاء اليتامى من النِّساء

جعل الاستعداد النَّفسي والذِّهنيَّ والحرص على أداء الحقوق: كمن يقوم واقفًا متأهِّبًا مستعدًّا لأداء مهمَّة مفصليَّة، فذكر المشبَّه به، وحذف المشبَّه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وفائدتها:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/85.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/195.
(3) البخاريّ، الحديث رقم: (4600).

إبانة أهمِّيَّة شؤون هؤلاء اليتامى من النِّساء، وجعل ذلك كفعل دائم مستمرٍّ لدلالة الفعل المضارع على التَّجدُّد والاستمرار.

ردُّ العجُز على الصَّدر في قوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾:

قال: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾، وتوالت الآي بَعْدُ على هذا المعنى، فقدّم القِسط ليناسب ما ذكر[1]، وقوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ هو في موضع جرٍّ عطفًا على ما قبله، أي: وفي أن تقوموا، والَّذي تُلي في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ [النِّساء: 2] إلى غير ذلك ممَّا ذُكِر في مال اليتيم، والقِسط: العدل، فتكون العبارة: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ من قبيل ردِّ العجز على الصّدر، وقال الزَّمخشريُّ: ويجوز أن يكون منصوبًا بمعنى: ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمَّة في أن ينظروا لهم، ويستوفوا لهم حقوقهم[2]، ولا يخلُّوا أحدًا يهتضمهم، ويحتمل أن يُرفع، ﴿وَأَن تَقُومُواْ﴾ بالابتداء، وخبره محذوف، أي: خير لكم، وإذا أمكن حمله على غير حذف بكونه قد عطف على مجرور؛ كان أولى من إضمار ناصب، كما ذهب إليه الزَّمخشريُّ، ومن كونه مبتدأ قد حُذف خبره[3].

التَّهويل من ظلم اليتامى

دلالة الاقتصار على فعل الخير في قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾:

قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾ لمَّا تقدَّم ذكر النِّساء، ويتامى النِّساء، والمستضعفين من الولدان، والقيام بالقسط؛ عقَّب ذلك بأنَّه تعالى يعلم ما يفعل من الخير بسبب من ذكر، فيجازي عليه بالثَّواب الجزيل، واقتصر على ذكر فعل الخير؛

الخير هو الذي رغَّب فيه

(1) السّيوطي، معترك الأقران: 3/142.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/570.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/85.

لأنَّه هو الَّذي رغَّب فيه، وإن كان تعالى يعلم ما يفعل من خير ومن شرٍّ، ويجازي على ذلك بثوابه وعقابه[1]، فلمَّا كان التَّقدير: فما تفعلوا في ذلك من شرٍّ، فإنَّ اللَّه كان به عليمًا وعليكم قديرًا؛ عطف عليه قوله ترغيبًا: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾، أي: في ذلك أو في غيره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: الَّذي له الكمال كلُّه، وقوله: ﴿كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾، أي: فهو جدير - وهو أكرم الأكرمين وأحكم الحاكمين - بأن يعطي فاعله على حسب كرمه وعلوِّ قدره، فطيبوا نفسًا، وقرُّوا عينًا[2].

بلاغة التَّنكير في قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾:

قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾: جمع كلَّ أنواع الخير مهما تكن كثيرة، وحصرها في علم اللَّه تعالى وإحاطته سبحانه، وفائدته: طمأنة العاملين أنَّ ما يفعلونه سيُجازَون به؛ لأنَّه - سبحانه - قد أودع أعمالهم في علمه، ثم ما في ذلك من جانب الكرامة لهم والتَّشريف لأعمال الخير أن جعلها اللَّه في رعايته وعلمه.

تعميم أفعال الخير وتمييزها من غيرها

فقوله: ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾ للتَّبعيض يدلُّ على القلَّة، فمهما يكن العمل قليلًا إلَّا أنَّ النِّيَّة فيه موجبة له الجزاء الحسن على حُسنه، أو السَّيِّئ على إساءته.

التَّقديم في قوله: ﴿كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾: قدَّم الجارَّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ للاهتمام، بما يقدِّمون من خير وترغيب فيه، وأصل الجملة: (كان عليمًا به)، وفائدة هذا التَّقديم الحثُّ على عمل الخير والانصراف عن أعمال السُّوء، فإنَّ كلَّ ما يقدِّمه الإنسان سيدخل في حيِّز العلم الإلهيِّ، فكان جديرًا بالنَّاس الحرص على متابعة النَّفس والأعمال، والقيام على ذلك.

الحثُّ على عمل الخير، والإعلام بأهميَّته مهما يكن

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/85.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 5/418.

ردُّ العجز على الصَّدر:

تأكيد المعاني المتقدِّمة

قد أتَمَّت الآية بخلاصة ما تقدَّم من قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ۝٦﴾ [النساء: 6]، وكذلك أشارت هذه الآية إلى ما تقدَّم بقوله هنا: ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، فأشار إلى قوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ۝٤﴾ [النِّساء: 3][1].

التَّكميل والإدماج:

كلُّهم ضُعَفاء، فألحقوا بالنِّساء

وقوله: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ عطف على يتامى النِّساء، وهو تكميل وإدماج؛ لأنَّ الاستفتاء كان في شأن النِّساء خاصَّة، والمراد المستضعفون والمستضعفات، ولكن صيغة التَّذكير تغليب، وكذلك الولدان، وقد كانوا في الجاهليَّة يأكلون أموال مَن في حجرهم من الصِّغار[2]، والنِّساء والمستضعفون والولدان جميعًا مشتركون في الضَّعف وقلَّة الحيلة.

حسن الانتقال في الآية الكريمة:

الالتئام والتَّوافق بين موضوعات الآية والعناية بها

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾ ذِكْرُ الله تعالى، ثُمَّ انتقل إلى ذكر الكتاب، فقال: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، ثم انتقل إلى فعل الخير، فقال: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾، وقد انسجم هذا الأسلوب مع معاملة النِّساء بالإحسان فضلًا عن إكرامهنَّ؛ لما في حسن الانتقال من الاستمرار على الكرم، والتَّنويع فيه، والتَّلطُّف في إكمال الخير حتَّى التَّمام.

فعل الخير لا يفنى أثره، والله يضاعف لمن يشاء

التَّذييل في قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾:

فبعد أن رغَّب في فعل الخير فيما استفتوا فيه رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾، ثُمَّ فصَّل في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/214.

أفعال الرِّجال مع يتامى النِّساء؛ ذيّل الآية بقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾؛ لبيان عظيم الجزاء الَّذي يجزيه الله تعالى عليه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يستفتونك) و(يسألونك):

الاستفتاء في موضوع يقتضي وجود قانون سابق في الموضوع نفسه، ولكن أُشكل على المستفتين أمره، فهم يطلبون الفَتوى، فجاء التَّعبير القرآنيُّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾.

أمَّا ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ [مثلا: البقرة: 189]؛ فذلك لأنَّ السُّؤال على خلاف الاستفتاء، لا يحتاج قبله إلى تشريع سابق، بل هو طلب لمعرفة قد تقتضي تشريعًا جديدًا.

والاستفتاء: طلب الفَتْوى أو الفُتْيَا، وهي إخبار عن أمر يخفى عن غير الخواصِّ، وفيه تبيين المُشْكِل، ولمَّا كان المسؤول عنه أمرًا محتاجًا إلى إعمالِ نظرٍ؛ أُطلق على الاستفهام عنه فعلُ الاستفتاء[1].

القسط والعدل:

إنَّ الْقِسْط هُوَ العدْل البيِّن الظَّاهِر، وَمِنْه سُمِّي الْمِكْيَال: قِسطًا، وَالْمِيزَان: قِسطًا؛ لِأَنَّهُ يصوِّر لَك الْعدْل في الْوَزْن، حَتَّى تراهُ ظَاهرًا، وَقد يكون من العدْل مَا يخفى، وَلِهَذَا قُلْنَا: إنَّ الْقِسْط: هُوَ النَّصِيب الَّذِي بُيِّنت وجوهُه[2].

وقد ناسب لفظ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ دون (العدل)؛ لأنّ العدل عامٌّ، ويكون على الغالب مرتبطًا بين عموم النّاس، وفي شؤون حياتهم كلِّها، أمَّا القسط؛ فهو واقع في تقسيم ما تحتاجه المخلوقات كلُّها؛ لتستمرَّ على ديمومتها، وهذا مثاله: القيُّوميَّة لله تعالى على هذا الكون، فالقسط يحتاج إلى قيّوميَّة، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: 18]؛ ولذلك ناسب قوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾، فذكر ارتباط القسط بالقيام؛ للتَّرغيب في تحرِّي العدل، وإظهاره لليتامى؛ ليعرفوا حقوقهم، ولا يمنع الإقساط في ذلك من الإعلان عن استيفاء اليتامى حقوقَهم، حتَّى ينفي الرِّيبة عن نفسه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/214.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 234.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»